

قضايا أخلاقية في قصيدة بذل النصيحة لأهل السودان لوزير محمد بدا: دراسة

تحليلية

إعداد

د. يعقوب الحاج عبد الله

yaqub.abdullahi@yahoo.com

08058035554

قسم اللغة العربية جامعة إلورن نيجيريا

و

د. بند عبد الله أبوبكر

bunduabdullahi1048@gmail.com

08036111386

مقدمة

إن علاقة الأدب بالمجتمع لعلاقة متينة ومتطورة، وما الأدب في مجمله إلا انعكاسا للبيئة والمجتمع الذي أنتج فيه، ولذلك يوصف الأديب بـابن البيئة التي يعيش فيها، وقد وظف المذاهب والمعتقدات والأحزاب قديما وحديثا النتائج الأدبي لخدمة مذاهبها ومعتقداتها وأحزابها علما منها بما للفن الأدبي من سلطة وقوة في التأثير والتوجيه. والشاعر وزير محمد بدا من الشعراء الإسلاميين الذين أدركوا أهمية الفن الأدبي وقوة سلاحه فوظفوا أشعارهم لبناء الإنسانية وتدعيم القيم الخلقية في الناشئين. وقصيدة الشاعر المعنونة بذل النصيحة لأهل السودان من النصوص الشعرية التي ناقشت القضايا الأخلاقية التي لاحظ الشاعر خطورتها على المجتمع السوداني لكونها من الرزائل والانحلال الخلقي، حيث يتجلى التصور الإسلامي والتوجيه الديني المستقيم فيما نثر عنه الشاعر. فهذا البحث يسعى إلى دراسة قضايا أخلاقية في هذه القصيدة والوقوف على نزعة الشاعر وحماسته ضد تلك القضايا، ويتناول البحث النقاط التالية: التعريف بالشاعر والقيم الخلقية في الأدب ومناسبة القصيدة والقضايا الأخلاقية في القصيدة، والقيم الجمالية في القصيدة.

أولا: القيم الخلقية في الأدب

يهدف النتاج الأدبي إلى غاية الإمتاع والمنفعة، وهي الغاية التي اعترف بها النقاد الإسلاميون وغيرهم من النقاد الذين التزموا الفطرة السليمة وأدركوا ما للفن من قوة وسلطة في التوجيه والتعمير، وبناء على الغاية الخلقية جاء نقد رسول الله ﷺ للشعر العربي حيث قال: أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد:¹

أكل شيء ما خلا الله باطل ** وكل نعيم لا محالة زائل

فالرسول ﷺ ذواق للشعر، يستمع إليه ويحث على قوله، مما كان من الأشعار المشتملة على مكارم الأخلاق والتوجيه السليم، مثل استماعه لشعر أمية بن أبي الصلت وحثه لحسان بن ثابت على قول الشعر دفاعا عن الإسلام ونودا عن رسوله والمسلمين ودعائه له.²

وموقف عمر بن الخطاب مع زهير بن أبي سلمى في تفضيله على الشعراء وتعليه هذا التفضيل بأنه لا يعاظم بين الكلامين ولا يتبع وحشي الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما فيه،³ يؤكد اهتمامه بالغاية الخلقية في قول الشعر، كما يثبت اتجاهه الخلق في الشعر إظهار سخطه على الشعراء الذين خاضوا في فحش القول ومنكره من هتك أعراض الناس وإغراء النفوس على ارتكاب السيئات، فقد سجن الخطيئة حين هجا الزبرقان وظل مسجوناً حتى استعطفه بقصيدة منها قوله:

ماذا تقول لأفراخ بنى مرخ ** زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
أدخلت كاسهم في قعر مظلمة ** فاغفر عليك سلام الله يا عمر⁴

ونجد الناقد المشهور عبد القاهر الجرجاني يرفض عبث الشعراء بالمفهومات الدينية في سبيل الإغراب أو المبالغة، ويعلق على بيت المتنبي الذي يقوله فيه:

يترشفن من في رشفات ** هن فيه أحلى من التوحيد

فيقول: وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق إذا دعت شهوة الإغراب إلى أن يستعير للهزل والعبث من الجد ويتغزل بهذا الجنس.⁵ ويريد بالجد الدين والإسلام.

ويرى عبد الرحمن رأفت الباشا ضرورة اعتبار القيمة الخلقية فيما يصوغه الأديب المسلم وما يأتي به من المعاني والصور، حتى يكون إنتاجه إسهاماً في بناء المجتمع السليم والسمو بالإنسانية، ولا فرق عنده في ذلك بين تصوير الأديب المسلم نواحي الحياة الإنسانية كلها، خيرها وشرها، حسناتها وسيئاتها، فيختار أبطاله من الأبرار أو من الأشرار أو من كليهما معاً، كلما كان الإحساس الأخير الذي يستقر في نفوس المتلقين يهدف إلى غاية واحدة، وهي إرساء قواعد الخير والفضيلة في المجتمع وإقلاق جذور الشر والرزيلة منه.⁶

ثانياً: التعريف بالشاعر

ولد وزير محمد بدا في أسرة معروفة بالعلم والدين سنة 1231هـ الموافق بـ 1882م في مدينة بدا، كان جده علماً ورعاً، برناوي الأصل، ومن جهازة العلماء الوافدين المتجولين في شمال نيجيريا لبث العلم والدعوة الإسلامية، ترعرع وزير تحت رعاية أبويه وفي حسن كفالتهم، حيث وجهاه إلى طلب العلم، فعكف عليه وقضى جل أوقاته في تحصيله ومجالسة العلماء والحكماء، ونتيجة الجهد المضني ظهر تعمقه في العلوم الإسلامية والعربية، وتصدر للتدريس في مدينة بدا وفي البلدان المجاورة لها من الناحية الجنوبية، وكان له تأثير عميق في تلاميذه. خلف إنتاجات علمية فائقة ما يبرهن على مقدرته العلمية وتفوقه في فن الكتابة والتأليف. ومن أشهر إنتاجاته قصيدة بذل النصيحة لأهل السودان في بيان قواطع السلم من الإنسان، قرضاها الشاعر لمحاربة ما يجري في أوساط بلاد السودان من الفساد الخلق والعقدي.⁷

ثالثاً: مناسبة القصيدة.

لقد جاب الشاعر بلاد السودان بما في ذلك من بلاد نوبي وبلاد يوربا وبلاد هوسا، وخالط أهلها وأدرك ما عليه مسلمو هذه المناطق من العوائد المخالفة لشريعة الإسلام من الاستخفاف بشرع الله والاجترار على الله سبحانه وتعالى والاستهزاء بمقدسات الإسلام من الأقوال والأفعال، فأراد محاربة هذه البدع الشنيعة كما فعل قبله الشيخ عثمان بن فودي في محاربة البدع الشائعة في بلاد السودان، فنظم هذه القصيدة مجارياً بها وموضحاً جزاء مرتكبيها ومصيرهم علماً

منه بتأثير العمل الأدبي في التوجيه والإصلاح ولسهل حفظه ونقله للناشئين، فجاءت القصيدة في مأتين وأربعة وأربعين بيتاً.

قضايا أخلاقية في القصيدة

تناول الشاعر في القصيدة قضايا أخلاقية سلبية متنوعة بالنقد والتأنيب، مما لاحظ في أوساط المجتمع السوداني من إساءة الأدب والخلق ما لا يسمح به الإسلام، وهي على حسب ما يلي:

أ- الاجترار على الله

لاحظ الشاعر من خلال معايشة مسلمي أهل السودان في زمانه أنهم يخوضون في بعض الأقوال والتصرفات التي لا تليق بذات الله سبحانه وتعالى واعتبرها مما قد يؤدي بقائلها إلى الخروج عن الإسلام أو استحقاق غضب الله وعقابه، من ذلك بعض ما يلي في أبياته:

إذا دام أو اشتد مرض يأمري
إذا شئت فاقتلني إلهي كافرا
فقال أخذت المال والولد كله
فقال إذا قولاً قبيحاً كذا ضجير
**
كذلك من يبلى بشيء من الشر
**
وما ذا بقي لم تأته فاجر ما تدري
**

ذكر الشاعر في هذه الأبيات ما يصدر من بعض المسلمين في بلاد السودان مما يؤدي بصاحبه إلى الكفر، وذلك أن يصدر ممن أصيب بمرض شديد أو امتدت مصيبته قول قبيح إلى جناب الله سبحانه وتعالى كأن يقول: إن شاء الله يقتله كافراً أو مسلماً، أو أن يتعالى على الله بتعداد مصائبه مضطجراً ومتشائماً، فيقول لله سبحانه وتعالى عما يقولون: أخذت المال والأولاد وغيرها، فافعل ما تشاء بما تبقى من النعم عليّ. فندد الشاعر بأصحاب هذه الأقوال وأنها مما يؤدي إلى الكفر واستحقاق غضب الله منطلقاً من الموقف الإسلامي الذي يفهم من حديث الرسول الذي ينهى المريض من تمنى الموت حين يشتد به المرض، يقول رسول الله ﷺ: لا يتمنى أحدكم الموت: إما محسناً فلعله يزداد، وإما مسيئاً فلعله يستغيث،⁸ فالمنع في هذا الحديث يقصد الذي يتمنى الموت لشدة المرض، لكن هذا الذي ذكره الشاعر في الأبيات فيتعدا تمنى الموت فقط إلى تمنى الموت على الكفر.

فمثل هذا الموقف لا يجوز من المسلم الحق الذي يراعي حرمة الله ويؤمن به إيماناً صادقاً وبأنه تعالى يبلى عباده من دون الاستثناء، قال تعالى: وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ١٥٧ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ١٥٨ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٩ [البقرة: 155-156] ونلاحظ سوق الشاعر معانيه في الأبيات الثلاثة على أسلوب الشرط وجوابه مما يجلب انتباه القارئ والسامع على شنيعة الاعتقاد وخطورة ما يترتب عليه من العذاب وسوء المصير.

وما ندد به الشاعر ما يصدر من بعض المتطفلين على التصوف من سوء الاعتقاد والخروج عن جادة الصراط المستقيم، وهو الزعم باتحاد صفاتهم بصفات الله أو رؤية الله ومكالمته شفاهاً أو إسقاط التكليف عنهم أو القول بأنه لا فرق بينهم وبين الله أو غير هذه مما يجري على لسان الغلاة الصوفيين. يقول الشاعر:

ومن قال في الحور الحسان إلها
يحل فذا في تيهه أبداً يجري
**

وإني أراه ظاهرا في الدنا فادر	**	كذلك صفاتي بدلت بصفاته
قد أسقط عني الله التكليف في الأمر	**	أكلمه أيضا شفاها أو قائل
حرام أنا الرحمن وهو أنا يسرى	**	قد أسقط عنه الفرق بين الحلال والـ
إلى صفة اللاهوت ذى العز والقهر	**	صفاتي فنت من صفة الناس فاعلمن

يقول الشاعر في الأبيات السابقة أن كل من اعتقد بحلول الله في الحور الحسان من النساء اللاتي أعدّه الله في الجنة لعباده الصالحين، فقلوه واعتقاده باطلان، وكذلك من ادعى اتحاد صفاته مع صفات الله أو زعم أنه يكلم الله في الدنيا أو أن الله أسقط عنه التكليف. فمثل هذا الاعتقاد والأقوال عند الشاعر مردود وحرام ويؤدي بقائله ومعتقده إلى الكفر، وهذه الأقوال والاعتقادات حاربها الشاعر مبطلا لها ومنندا بها، لذلك أطلق زمام قصيدته يسيل بالمعاني مؤكدة ومطنبّة لتسقر في الأذهان وتستحوذ على النفوس. فالبيت الثاني جاء مؤكداً لمعنى البيت الأول كما جاء البيت الرابع مؤكداً للبيت الثالث، فهو إطناب مفيد لزيادة الإيضاح وبيان خطورة المعتقدات المبطلّة المفيضة إلى الكفر والخروج عن الإسلام.

وما صنّفه الشاعر من الكفر وعزّر صاحبه عليه قول من يقول إن فلانة أحب إليه من الله، الظاهر في قول الشاعر:

ومن قال يا أسماء أنت أحب لي ** من الله فاقتله إذا كنت ذا أمري

فهذا اجتراء على الله سبحانه وتعالى وعدم رعاية حرمة الله والتهاون في تقديسه وتوحيده، وإلا كيف يقاس حب الله بحب غيره، فضلا عن تفضيل حب غيره عليه. فمثل هذا القول يصدر من بعض الشعراء الذين ذمهم القرآن والذين يفتقدون الالتزام الإسلامي في أشعارهم. وقد أجاد الشاعر في الاتيان بجواب الشرط مضمنا الحكم المترتب على قائل هذا القول، وهو القتل حدا من الحكومة أو ذوي الأمر.

ب- الطعن في شخصية الرسول ﷺ

وظف الشاعر أبيات كثيرة من قصيدته في تحذير أهل السودان من الطعن في شخصية الرسول ﷺ والانتقاص من شرفه وكرامته حتى لا يؤدي ذلك إلى الكفر والخروج عن جادة الطريق. يقول الشاعر:

ومن سب خير خلق أو سب دينه	**	أو ألحق نقصا بالنبي فذو وزر
أو ألحق نقصا بالخصال التي أتت	**	ولو خصلة منه فموجبة الكفر
ومن قال في تشبيهه حين يوصف	**	أهو كهذا المار ذى القبح في النظر
ومن عير المختار من جرح ناله	**	كذلك بالنسيان والسهو والسحر
ومن قال ثوب المصطفى ورادؤه	**	ومئزره وسخ معيبا به الفهر
ومن قال لا أدري أكان محمد	**	عليه من الله السلام مدى الدهر
من الإنس أو من نوع جن كمن يقل	**	لعضو له قد كان في غاية الصغر

ومن قال جني يريد احتقاره

**

بذي كلها فالنار مثوى لذا الغمر

فالشاعر في الأبيات السابقة يحذر أهل السودان من الخوض في طعن شخصية الرسول الله عليه وسلم وإلحاق به النقص والإذابة مما يؤدي بصاحبه إلى الكفر واستحقاق غضب الله، من ذلك سب رسول الله ﷺ أو انتقاص خلصة من خصاله أو تشبيهه برجل قبيح في المنظر، يريد بذلك الاستهزاء والاحتقار من شخصيته، فمن صدر منه واحد من هذه يعد كافرا. وما يؤدي إلى الكفر تعيير الرسول ﷺ بجرح أصابه أو وصفه بالنسيان والسحر مما قد برأه الله منه. وكذلك يكفر من عير الرسول بادعاء وسخ ثوبه وردائه لغرض طعن في شخصيته، أو نسبه ﷺ إلى جن بأن قال: إنه جني قاصدا احتقاره، فذلك كافر ويستحق عذاب الله. فهذه المذكورة تمثل بعض ما يصدر من الجهلة والسفهاء في طعن شخصية رسول الله ﷺ والتي ندد بها الشاعر وحذر في الأبيات السابقة. وكان معتنيا بتصنيف معانيه في قالب فني مرتبة في جمل شرطية وجوابها، تنسأل تلك المعاني في نفوس القارئ وتهزه هزا لتتقذ المبتلى بهذا الغي والجهل من ضلاله وجهالته إلى وعيه ورشده قبل اسحقاقه لسخط الله وعذابه.

ج- عدم الاكتراث بجرمة القرآن

يقول الشاعر:

ومن كذب القرآن أو ما أتى به ** من الحكم أو شيء به نهى أو أمر
وأثبت ما أنفاه أو نفى ما ثبت ** على علم منه بالمقول فدو بور
كذلك إن شك بشيء به طرا ** ووجد كتورا مع الصحف الغر

يذكر الشاعر في هذه الأبيات بعض ما يصدر من بعض الجهال في بلاد السودان من عدم الاكتراث بجرمة القرآن الكريم وعدم اعتباره كلام الله الذي لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو أن يعتقد بعضهم أو يقول بتكذيب القرآن أو تكذيب آية منه، أو أن يثبت ما قال القرآن بنفيه أو نفى ما أثبتته أو أن يشك في شيء مما ورد فيه من الأحكام أو الأخبار أو المأمورات والمنهيات. فكل ما ذكر يكفر به معتقده، ويكفر كذلك كل من قال بتكذيب الكتب المنزلة من الله سبحانه وتعالى كتورا والإنجيل وغيرها.

يظهر في الأبيات اعتناء الشاعر بمنزلة القرآن الكريم وحرمة، فحسه بالذكر أولا وإصدار الحكم على مكذبه وجاحده قبل تعميم الحكم على جاحد غيره من الكتب السماوية، وذلك ذكر العام بعد الخاص لإظهار فضل الخاص وكرامته على غيره، ولجوء الشاعر إلى اختيار الألفاظ ذوات التضاد من أمر ونهي، أو نفي وإثبات مما يثري المعاني ويؤثر في نفوس القراء والمستمعين.

هـ- الاستهزاء بمقدسات الإسلام

يقول الشاعر:

وإن سمع الأذان من فم مؤذن ** فقال له كذاب مفتر لا يدري
ومن قال هذا الصوت كالجرس إذ سمع ** مناد فلاح كفروه مع النظر

** قراطيس علم الشرع من غير ما عذر

عنادا أو استهزاء فهي من الضير

على عدم الاستهزاء بالأمر ذي الفخر

والغاء مرء مصحفا والحديث مع

وكلمة كفر باعتقاد إذا صدر

ولم تأت منه قرينة دالة

ومما يعتبره الشاعر من الاستهزاء بالإسلام ومقدساته إظهار الإشمئزاز والاستنكاف من الأذان المشروع لإقامة الصلاة، فينسب جاهل المؤذن إلى الكذب والافتراء أو يستهزئ بصوته، كأن يقول: هذا الصوت كالجرس، فإنه يكفر من صدر منه مثل هذه الأقوال. ومما يعتبره استخفاف بشعائر الإسلام ويكفر به مرتكبه رمي المصحف أو كتب الحديث النبوي أو كتاب فيه العلوم الشرعية من غير عذر يعتذر به المرتكب، وكذلك صدور كلمة كفر من مسلم مما يفهم منها الاستهزاء من الإسلام والاستهتار لحرمة، فإنه يعد المرتكب كافرا إلا إذا وجدت قرينة تدل على عدم الاستهزاء بالإسلام.

فقد أطنب الشاعر في البيتين الأولين لكشف خطورة الإثم وجراءة مرتكبه، حيث ذكر من فم المؤذن، المستفاد من مجرد سماع الأذان، إذ الأذان لا يصدر إلا من فم المؤذن. ثم ذكر بعد تكذيب المؤذن نوعا من الاستهزاء الذي يصدر من بعض الجهال في الأذان، وهو تشبيه صوت المؤذن بالجرس، وطبيعة موضوع القصيدة التي هي النصيحة تقتضي هذا الإطناب والتوضيح والتأكيد في كثير من الأحيان.

و- الاستخفاف بأمر الدين

يقول الشاعر:

** علي من الدين الحنفي ما تدري

** وحتى أرى أيضا فموجبة الكفر

فقال اجلس في آخر المجلس الذكر

وإن قال ذو كفر لمسلم اعرض

فقال له اصبر يا فلان إلى غد

** ولو طلب التعريض من واعظ يرى

ويذكر الشاعر في هذه الأبيات السلوك الذي يصدر من بعض المسلمين الذين ليس لهم الحماسة الدينية ويظهرون الاستخفاف بأمر الله في الدعوة إلى الإسلام وترغيب غير المسلمين فيه بالموعظة الحسنة والأخلاق الحسنة، من ذلك أن يقول مسلم لكافر جاءه ليسلم: اصبر إلى غد أو اصبر حتى أنظر في أمرك. فإن هذا المسلم يصير كافرا بهذا القول والصنيع. كما يرى الشاعر أنه لا ينبغي لعالم واعظ أن يظهر عدم المبالاة بكافر طلب منه عرض الإسلام، فيأمره بالجلوس في آخر مجلس الوعظ استخفافا واستنكافا منه.

فقضية الإعراض عن كافر يريد الإسلام قضية حساسة تخالف ما عرف الإسلام به من السماحة والتبشير وتآليف قلوب غير المسلمين إليه، وإعطاء الحقوق للناس جميعا من دون التفریق بين المسلمين وغيرهم. وقصة عتاب القرآن للنبي ﷺ مشهورة عند إعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم الذي جاء يريد الإسلام والرسول مشغول عنه بغطاء

قريش يعرض لهم الإسلام ويطمع في إسلامهم ومع ذلك عوتب بقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ﴾ [عبس: 1-4].

وما عده الشاعر من الاستخفاف بالإسلام وحذر عنه ما جاء في الآيات التالية:

ومن قال إن صليت أو لم أصل	**	سواء لديّ الترك والفعل للأمر
ومن قال إن الكفر مستو عنده	**	بالإيمان فالخذلان يأتيه من غمر
وكافر مبسوط اليدين سيدخل	**	كذا أهل الأهواء لجنة ذى البر

يقول الشاعر في الآيات أنه مما يجب أن يحذر عنه الجهلة من المسلمين في بلاد السودان الاعتقاد والزعم بأن لا فرق بين أداء الصلاة وعدم أدائه أو القول باستواء الكفر والإيمان، فمثل هذا الاعتقاد جهل وضلال، يوء صاحبه بالحزى وعذاب الله، كما حذر الشاعر عن الاعتقاد بأن الكافر الذي يبسط يديه بالعطاء والإحسان إلى الناس سيدخل الجنة بذلك. فهذا الاعتقاد أيضا باطل ومردود، إذا مجرد الإحسان إلى الناس لا يكفي لدخول الجنة إذا لم يكن مقترنا بالإيمان وأداء شعائر الإسلام، فالكافر يثاب على إحسانه في الدنيا بالحسنات، أما في الآخرة فلا يجد شيئا، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۚ﴾ [النور: 39].

وبواصل الشاعر في إنكاره على ما يرد من الاستخفاف بالإسلام على لسان بعض الجهلة في البيتين التاليين:

ومن قال قولاً كي يصل به الورى	**	فتكفيره لا خلف فيه لدى السبر
كذلك تكفير الصحابي ومن يقل	**	سماع الغناء نفعه فائق الذكر

يبين الشاعر في البيتين عظمة جريمة من تعمد إضلال الناس بأن يلبس الحق بالباطل والباطل بالحق قصدا للتويه والتضليل، فإنه يصير بذلك كافرا، من غير خلاف لدى العلماء. ومن أمثلة ذلك تكفير صحابي بلا دليل، والقول بأن سماع الغناء خير من قراءة القرآن أو التسبيح. فمثل هذين وغيرهما مما ظاهره يخالف شريعة الإسلام يرد على صاحبه، ويحذر الشاعر أهل السودان من استماع إلى مثل هذه الأقوال والاقتراب من أصحابها لاعتبارهم من علماء السوء أنصار الشيطان.

ز- التحذير من تكفير المسلم

إن قضية تكفير مسلم لأخيه المسلم شائعة في المجتمعات الإسلامية باختلافها، وقد لاحظ الشاعر هذا الداء في المجتمع السوداني في أيامه فقام محاربا له ومنددا به في الآيات التالية:

إذا قال منا مسلم لمن أسلم	**	ولم يأت بالتأويل يا كافر مذر
فقد باء بالقول الذي قاله	**	وهذا حديث صح عن أحمد الفهر

وقد قال بعض الناس لا فرق بين أن * * يؤول أو لا فانظر النص واستقري

يقول الشاعر إذا قال مسلم لأخيه المسلم: يا كافر، فإن هذا القول لا يذهب هباء، فإما أن يكون كافرا كما قال أو يرجع الكفر إلى قائله، إذا نسبته إلى الكفر من غير التأويل، وقال بعض العلماء لا فرق بين التأويل وعدم التأويل، فإن الكفر يلحق بأحدهما. وهذا الحكم بناء على قول رسول الله ﷺ: "إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال، والإرجعت عليه"⁹ ففي ظاهر الآيات التنصيص بهذا الحديث النبوي، ويكفي الحديث ردعا لمرتكب هذا الإثم وإساءة الظن بأخيه المسلم، فالإسلام يحث على حسن الظن بالأخ المسلم قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: 12].

ويأتي الشاعر في مقابل قضية تكفير المسلم السابقة بمناسبة أخرى يجب فيها التكفير، وتلك في حق من كان يدين بغير الإسلام، يقول الشاعر:

ومن لم يكفر امرئ في الوري * * * بدين سوى الإسلام فهو كذي كفر
ومن شك في تكفيره فهو هكذا * * * ولو أظهر الإسلام بين الوري فادر

يقول الشاعر يجب تكفير كل من اعتنق غير الإسلام دينا، ومن أبى تكفيره أو شك في تكفيره فهو يكون بذلك كافرا ولو أظهر الإسلام بين الناس، إذ الإسلام وحده هو الدين المرضي عند الله، قال تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ [آل عمران: 19] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

رابعا: القيم الجمالية في القصيدة

لقد عني الشاعر باختيار الألفاظ في هذه القصيدة عناية فائقة، فعمد إلى ألفاظ سهلة واضحة ما يتلائم وموضوع القصيدة، وإن لم تخل تلك الألفاظ من بعض الكلمات المعجمية الصعبة التي ترد في القوافي، يأتي بها الشاعر أحيانا استخلاصا للقافية ومتأثرا بالتراث القديم أمثال: ضجر، وفهر، وغمر، ضير، وسبر وبور، وهي قليلة قياسا بالمفردات السهلة التي تحفل بها القصيدة.

أما الخاصية الأسلوبية المتميزة في القصيدة فهي سوق الشاعر جل معانيه وأفكاره في جمل خبرية شرطية، يستولي بها على نفوس القراء ويجذب انتباههم إلى نصحه وما يترتب عليها من الأحكام والتعزيرات، حيث أتى بجواب الشرط لإشباع رغبة القارئ وإقناعه بالنصح والأحكام الصادرة على أنواع من المحذورات والمكفرات. وقد راعى الشاعر القواعد النحوية في الاتيان بالجمل الشرطية وجوابها، وخاصة فيما يجب فيه اقتران الجواب بالفاء أو عدمه. وتبدو استعانة الشاعر بأسلوب الإطناب لتأدية معانيه وإيصالها إلى القراء موزعا في أبيات القصيدة. والإطناب مناسب وموضوع القصيدة الذي هو النصيحة لأهل السودان، الموضوع الذي يحتاج إلى البيان والإقناع، ويعرف الإطناب

من وسائل البيان عند البلاغيين "وأن أفضل الكلام أبينه، وأبينه أشد إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا باستقصاء".¹⁰ ويتجلى في القصيدة الإطناب الذي يقوم على التكرار المعنوي الذي يفيد التقرير والإثبات والبيان والتوصيح لمضمون الأفكار الواردة في الأبيات، مثال ذلك قوله:

ومن سب خير خلق أو سب دينه ** أو الحق نقصا بالنبي فذو وزر
أو الحق نقصا بالخصال التي أتت ** ولو خصلة منه فموجبة الكفر
ومن قال في تشبيهه حين يوصف ** أهو كهذا المار ذى القبح في النظر
ومن عير المختار من جرح ناله ** كذلك بالنسيان والسهو والسحر
ومن قال ثوب المصطفى ورداؤه ** ومئزره وسخ معيبا به الفهر

فهذه الأبيات الخمسة تدور حول ثلاثة معان هي: سب الرسول، أو سب دينه أو إلحاق النقص به، لكن الشاعر أطنب في هذه المعاني بالتكرار المعنوي وسلية إلى التوضيح والإقناع، حيث ورد في الأبيات التشبيه والأمثلة لأنواع الانتقاصات المزعومة التي اتهم بها الرسول ﷺ من قبل الجهالة.

ولا تخلو ألفاظ القصيدة من بعض مفردات القرآن الكريم والحديث النبوي التي تعكس ثقافة الشاعر ونزعتة الإسلامية، وما له انتماء إلى حديث الرسول قول الشاعر: "إذا قال منا مسلم لمن أسلم يا كافر، فقد باء بالقول الذي قاله". كما يبدو تأثره بكتب التوحيد والعقائد الإسلامية.

الخاتمة.

لقد اكتشف لنا جليا خلال الدراسة السابقة كيف وظف الشاعر وزير محمد بدا فنه الشعري لمحاربة العوائد والعقائد الفاسدة المفشاة في أوساط أهل السودان في زمانه، ووقف منددا لما يصدر من بعض الجهالة والمتطقلين على التصوف من الأقوال التي يدل ظاهرها على الاجترار على الله وعدم الاكتراث بالقرآن الكريم والكتب المنزلة من الله تعالى والاستهزاء ببعض المقدسات الإسلامية والاستخفاف بشعائر الإسلام والطعن في شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد استغل الشاعر في محاربة هذه الظاهرة ثقافته الأدبية ووفرة أدواته الفنية خير استغلال، وكان الأسلوب الخبري المتضمن الجمل الشرطية وجوابها خاصة جليلة تميزت به القصيدة، تنسأل فيها المعاني والأفكار مستحوذة على القلوب ومأثرة في القراء والمستمعين، كما كانت خاصية الإطناب بالتكرار المعنوي المناسبة وطبيعة موضوع النصيحة من الظواهر البلاغية والأسلوبية التي أضفى على معاني الشاعر وأفكاره جمالا ورونقا. ولا تخلو القصيدة من بعض المفردات القرآنية والسنة النبوية التي تعكس ثقافة الشاعر ونزعتة الإسلامية.

الهوامش

- 1- ناصر عبد الرحمن النحني، الالتزام الإسلامي في الشعر، ط1، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، 1987م، ص134.
- 2- ناصر عبد الرحمن النحني، المرجع نفسه، ص129.

- 3- المرجع نفسه، ص159.
- 4- يعقوب الحاج عبد الله ملامح الأدب الإسلامي في شعر الهوسا المدون، بحث الدكتوراه مقدم إلى قسم اللغة العربية، جامعة إلورن، نيجيريا، 2009م، ص24.
- 5- عبد الباسط بدر، مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، ط1، دار المنارة، جدة، 1985م، ص133.
- 6- عبد الرحمن رأفت الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، ط4، دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع، 1998م، ص194.
- 7- بند عبد الله أبوبكر، دراسة الأساليب البلاغية في منظومة النصيحة لأهل السودان لوزير محمد بدا، بحث لنيل درجة الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة إلورن، نيجيريا، 2015م، ص45.
- 8- يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، ط4، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، د.ت، ص219.
- 9- يحيى بن شرف النووي، المرجع نفسه، ص507.
- 10- أحمد المطلوب وكامل حسن البصير، البلاغة والتطبيق، ط1، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، 1982م، ص201.